

تفسير سورة الروم

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿١﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٢﴾
 لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْسَحُ الْمَوْتُونَ ﴿٣﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة
 واقاصى بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى الجاه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ،
 ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿الْمَ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ ، قال :
 غَلَبَتْ وَعَظَمَتْ . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أصحاب اورثان ، وكان
 المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لابي بكر ، فذكره أبو بكر
 لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » . فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا :
 اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا
 خمس سنين ، فلم يظهرها ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ . فقال : « ألا جعلتها إلى دون »
 أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال :
 فذلك قوله : ﴿الْمَ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ﴾ . هكذا رواه الترمذى والنسائى جميعاً ، وقال الترمذى : حسن غريب ^(١) .

وعن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ،
 والروم . أخرجه ^(٢) .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون
 يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب
 وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿الْمَ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ
 سِنِينَ﴾ ، قالوا : يا ابا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين !؟ قال : صدق .
 وقالوا : هل لك إلى أن نقامرك؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء
 ففرح المشركون بذلك وشتى على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « ما بضع سنين عندكم؟ »

(١) المسند (١ / ٢٧٦) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣١٩٣) والنسائى فى الكبرى
 (١١٣٨٩) .

(٢) البخارى (٤٧٦٧) ومسلم (٢٧٩٨ / ٣٩) .

قالوا: دون العشر. قال: « اذهب فزايدهم وازدد ستين في الاجل ». قال: فما مضت الستان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿ آتَمَّ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (١).

وروى أبو عيسى الترمذى عن نيار بن مكرم الاسلمى قال : لما نزلت ﴿ آتَمَّ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيقلون . في بضع سنين ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بَنَصَرَ اللَّهُ بَنَصْرًا مِنْ بَنَاءٍ وَهُوَ الْغَزِيرُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة : ﴿ آتَمَّ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي آتَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَقْلُونَ ﴾ فقال ناس من قريش لأبى بكر: فذاك بيننا وبينكم ؛ زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا تراهنك على ذلك ؟ قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعا الرهان، وقالوا لأبى بكر : كم تجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه . قال : فسما بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لان الله قال: في بضع سنين . قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير . هكذا ساقه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح (٢)، وقد روى نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة، والشعمي، ومجاهد، وقتادة ، وغيرهم .

ولتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿ آتَمَّ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ، في أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة النعص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة بافت بن نوح، أبناء عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر . فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران ، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفًا ، فتابعها - يقال : تقيّة - واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافًا كبيرًا متشرا متشتتا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، فوضوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الحياة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين - يمتون : كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والفظاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعائين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساوسة ، ثم الشماسة . وابتدعوا الرهبانية. وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة

إليه وهي القسطنطينية ، يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب ، وبنى أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ : «إنهم افرقوا على اثنتين وسبعين فرقة»^(١) . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وادهامهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة فناواه كسرى ملك الفرس ، وملك البلاد كالعراق وخراسان والرعى ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر . وله رياسة العجم وحمافة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، وحتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصرارى تعظمه تعظيماً رائداً ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيذة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء . فأجابته إلى ذلك ، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوعهه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لمجزت قدرتهما عن جمع عشره ، وسال كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسمى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفاته ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته ، في جند قد عيته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فانا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتي ، وإن شئتم وليتم عليكم غيري . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط ، هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فمات في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولاً فأولاً ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهي كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نسائه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحضيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب لياخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التي لا سبيل لقبصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند قم المخاضة ، وركب في بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعير والروث فحملت معه ،

(١) أبو دارد (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩٢) وفي الزوائد : «إسناد عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعبيدة بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندى سوى هذا الحديث ، قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان في الثقات وياتى رجال الإسناد ثقات .»

وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدا ، ثم أمر بالقاء تلك الاحمال في النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا في طلبهم فشققت للمخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير فقاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلاؤهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا نزارهم ونساءهم . فكان هذا من غلب الروم فارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس الروم .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز . وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة ، وهي أقرب إلى بلاد الروم من فارس ، فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهي تسع ؛ فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال لأمي بكر في مناجاة ﴿ ائتم غلبت الروم ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (١) . وروى عن عبد الله بن عمرو أنه قال ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لَهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ، ونويت . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بَنَصْرَ اللَّهِ ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ، وهم المنجوس ، وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء ، كابن عباس ، والثوري ، والسدي ، وغيرهم . وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم . ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن اظفروه الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً لله - عز وجل - ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة . فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صحرا بن حرب الأموى في جماعة من كفار قريش كانوا في غزاة ، فجاء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، فقال لأصحابه - وأجلهم خلفه - : إني سأئل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يأتروا على الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو صانع فيها - يعنى بذلك الهلثة التى كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستندلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وقى بتدريه بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما يبنى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وقى بتدريه ، والله أعلم .

والامر في هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب في الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى هاهنا : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى : هذا الذى أخبرناك به - يا محمد - من أنا منتصر الروم على فارس ، وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون فى أمور الدنيا عما ينفعهم فى الدار الآخرة ، كان أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصرى : والله ليلغ من أحدهم بدنياء أنه يقلب الدرهم على ظفروه ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، يعنى : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم فى أمر الدين جهال .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَمَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا الشَّوْءَ إِنَّ كَذِبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى سبحانه على التفكير فى مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ يعنى به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والاجناس المختلفة ، فيعلمون أنها ما خلقت سدى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ولحماة من صدقهم ، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : بأنفاهم وعقولهم ونظرمهم وسماع أخبار الماضين ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، أى : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ - وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتهم معشار ما أوتوا ، ومكنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها

أعملوا طوعاً ، فعصروها أكثر منكم ، واستغلوا أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : ولما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزؤوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتعمد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمَّا كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آمَنُوا السَّوْءِ أَنْ كَلَّمُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَقَانُوا بِهَاِ سَهْتُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَقَلَّبُ وُجُوهَهُمْ وَانصَابَهُمْ كَمَا لَمْ يَأْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ وَتَلَدَّرْهُمْ فِي ظُهُوبِهِمْ يَمْشُونَ ﴾ [الانعام : ١١٠] ، وقوله : ﴿ لَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] . وعلى هذا تكون السواى منصوبة مفعولاً لاساوا ، وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ لَمَّا كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آمَنُوا السَّوْءِ ﴾ ، أى : كانت السواى عاقبتهم ، لانهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَاذِبِينَ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُنْفِقُونَ كَفَرًا ﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى : كما هو قادر على بدهاته فهو قادر على إعادته ، ﴿ لَمَّا كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آمَنُوا السَّوْءِ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ، قال ابن عباس : يباس للمجرمون . وقال مجاهد : يفتضح للمجرمون . وفى رواية : يكتب للمجرمون . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُنْفِقُونَ كَفَرًا ﴾ أى : قال قتادة : هى - والله - الفرقة التي لا اجتماع بعدها . يعنى : إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ ، قال مجاهد وقاتة : يتممون .

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿

هذا تسييح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاده لعباده إلى تسيحه وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه . ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسييح وهو التحميد ، فقال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .

ثم قال تعالى : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ ، فالعشاء هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء .

فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً ، كما قال تعالى: ﴿ وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّأْنَا . وَاللَّيْلَ إِذَا بَغَّشْنَا ﴾ [الشمس : ٣ ، ٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا بَغَّشْنَا . وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : ١ ، ٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات في هذا كثيرة . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله الذي وفي ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وعبثاً وحين تظهرون » (١) . وروى الطبراني عن عبد الله بن عباس ، عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ جِئْتُمْ مَسْجُودًا وَحِينَ تَصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الآية بكاملها ، أدرك ما فاتته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته » إسناده جيد ، ورواه أبو داود في سننه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يُفْرِجُ الْغَمَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُفْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات . والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَيُّ لُحْمٍ أَرْضَ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَيًّا فَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَتَّعَثُّ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ - ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ تَلَكُمُهَا تَلَكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَجِّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَكُونُوا إِلَيْهَا رَاحَةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أبائكم آدم من تراب ، ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصوّر فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحماً ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سمع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور في أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتسع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرّفهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة ، والحسن والقيح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو

(١) المسند (٣ / ٤٣٩) .

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٢٣٩) وأبو داود (٥٠٧٦) .

آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والحديث والطيب ، والهبل والحزن ، وبين ذلك . . ورواه أبو داود والترمذى . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : خلق لكم من جنسكم إنثًا يكن لكم أزواجًا ، ﴿ تَسْكُنُوا فِيهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ، معنى بذلك : حواء ، خلقها الله من آدم من صلعه الاقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الالتفاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرفقة ، فإن الرجل بمسك المرأة إما لمحبة لها أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه فى الإنفاق ، أو للالفة بينهما ، وغير ذلك ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَأَوَّلَ زَكَاةً أَنْ يَقُولَ رَبِّكَ إِنَّكَ لَأَنْتَ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخْلَفَ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ﴾ أى : اللغات ، فهولاء بلسة العرب ، وهولاء تتر لهم لغة أخرى ، وهولاء كرج ، وهولاء روم ، وهولاء إفرنج ، وهولاء بربر ، وهولاء تكور ، وهولاء حبشة ، وهولاء هند ، وهولاء عجم ، وهولاء صقالبة ، وهولاء خزر ، وهولاء ارمن ، وهولاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعمله إلا الله تعالى فى اختلاف بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حلاهم ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة : كل له عينان وحاجبان ، وأنف وجبين ، وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى . ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح ، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : ومن الآيات ما جعل لكم فى صفة النوم فى الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب . وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم ، ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ أى : يعون .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ أَلْبَاقٍ حَوَافًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةَ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمْ الْهَاقِبَةَ حَرَفًا وَطَمَعًا﴾ أى: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة ، أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ، أى : بعد ما كانت هامة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهيج﴾ [الحج : ٥] . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر : ٤١] وكان عمر ابن الخطاب إذا اجتهد فى اليمين يقول: لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره . أى: هى قائمة بأمره وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنَّ لِبَشَرٍ إِلَّا قِيلًا﴾ [الإسراء : ٥٢] . وقال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِتُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ملكه وعبيده، ﴿كُلُّ لَمْ قَانِتُونَ﴾ أى: خاضعون خاشعون طوعا وكرها .

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس : يعنى أيسر عليه . وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداية ، والبداة عليه هين . وكذا قال عكرمة وغيره . وروى البخارى عن النبى ﷺ قال : قال الله تعالى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ . فأما تكذيبه إياى فقلوبه : لئن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقلوبه : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . منفردا بإخراجه البخارى ^(١) . وقد رواه الإمام أحمد منفردا به بنحوه ، أو مثله ^(٢) . وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفى ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خثيم . ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة، قال : ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله : ﴿هُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس كقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] . وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره . ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ : الذى لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أفعاله وأقواله، شرعاً وقدرًا . وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المنكدر ، فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ

(٢) المسند (٢ / ٣٥٠) .

(١) البخارى (١٩٧٤ ، ١٩٧٥) .

الأعلى ﴿ قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

هذا مثل ضربه الله - تعالى - للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والانداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا في تليبتهم يقولون : لييك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : تشهدونه وتفهمونه من انفسكم : ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى : لا يرتضى احد منكم أن يكون عبده شريكاً له فى ماله ، فهو وهو فيه على السواء ، ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : تخافون أن يقاسموكم الاموال . قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف ان يقاسمك مالك ، وليس له ذلك ، كذلك الله لا شريك له . والمعنى : أن احدكم يأخذ من ذلك ، فكيف يحملون لله الانداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] ، أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان احدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأفنون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله ، ففسبوا إليه مالا يرتضونه لانفسهم ، فهذا اخلط الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقته ، واحدهم بأبى غاية الإباء ويأخذ غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبده شريكه فى ماله ، يساويه فيه ، ولو شاء لقسامه عليه . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولما كان التنبه بهذا المثل على براهته تعالى ونزاهته بطريق الاولى والاحرى ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سقمًا من انفسهم وجهلاً ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : فى عبادتهم الانداد بغير علم ، ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ أى : فلا احد يهديهم إذا كتب الله اضرارهم ، ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَأَقْوَمُهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا سِحْبًا كُلَّ حَرْبٍ يَمَأُ لَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى : فسد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هداك الله لها ، وكملمها لك غاية الكمال ، وانت مع ذلك لارم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الاعراف : ١٧٢] . وفى الحديث : « إني خلقت

عبادى حنفاء ، فاجتالهم الشياطين عن دينهم « (١) . وسنذكر في الاحاديث أن الله - تعالى - فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها . فيكون خيرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ ذَخَّرَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح . وقال آخرون : هو خير على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبيرة ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة في قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، أى : لدين الله . وقال البخارى : قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لدين الله ، خلق الأولين : دين الأولين ، والدين والفطرة : الإسلام . وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ، ثم يقول : ﴿ فَطَرَتُ اللَّهُ النَّاسَ لِيُفْطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ . ورواه مسلم (٢) .

وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة : روى الإمام أحمد عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يعرب عنه لسانه ، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » (٣) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » . أخرجاه (٤) .

وقد روى أحمد أيضاً عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول : « أولاد المسلمين مع المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين » ، حتى حدثنى فلان عن فلان : أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال : فلقيت الرجل فأخبرنى فأمسكت عن قولى (٥) .

وروى الإمام أحمد عن عياض بن حمار ، أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومى هذا : كل مال نحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم اتهم الشياطين فأضلتمهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لابتليك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان . ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : يارب ، إذا يُلْقُوا رَأْسِي فِيدِعُوهُ خُبْرَةً . قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ، وأنفق عليهم فستنق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . قال : « وأهل الجنة ثلاثة : ذو

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) وأحمد (٤ / ١٦٢) .

(٢) البخارى (٤٧٧٥ ، ٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) .

(٣) المسند (٣٥٣ / ٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٢١٨) : « وفيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف ، وبقية رجاله ثقات » .

(٤) المسند (١ / ٣٢٨) والبخارى (١٣٨٣) ومسلم (٢٦٦٠) .

(٥) المسند (٥ / ٧٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٢٢١) : « رجاله رجال الصحيح » .

سلطان مُقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق بكل ذي قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير متصدق .
 وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ، الذين هم فيكم تبعاً ، لا يتفنون أهلاً ولا مالا ، والخبائن
 الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك
 ومالك ، وذكر البخيل ، أو الكذاب ، والشنظير : الفحاش . انفراد بإخراجه مسلم (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكِ الدِّينَ الْقِيمَ ﴾ أى : التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القويم
 المستقيم ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس . فهم عنه ناكبون ، كما قال
 تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَيُضِلُّوكَ عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام : ١١٦] . وقوله تعالى : ﴿ مُبِينٌ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن زيد ، وابن جرير : أى
 راجعين إليه ، ﴿ وَأَتَقُوهُ ﴾ أى : خافوه وراقبوه . ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهى الطاعة العظيمة ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : بل من الموحدین المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواء .

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى : لا تكونوا من
 المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقرا بعضهم : « فارقوا
 دينهم » ، أى : تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، وسائر أهل
 الأديان الباطلة ، عما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي
 شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم
 على آراء وملل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء .

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِحُوا
 مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا
 عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا
 وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٤﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
 يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا
 أسخ عليهم النعم إذا فريق منهم فى حالة الاختيار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ هى لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين
 ولكنها تعليل لتضيض الله لهم ذلك . ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم : والله لو
 توعدنى حارس دَرَبٍ لحفت منة ، فكيف والمتوعد ها هنا الذى يقول للشيء : كن ، فيكون . ثم قال
 تعالى منكرًا على المشركين فيما اختلفوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ
 سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة ، ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أى : ينطق : ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ وهذا استفهام إنكار ، أى :
 لم يكن لهم شىء من ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ووقفه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١١٠] ، أى: يفرح فى نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ، قال الله تعالى: ﴿ إِيَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [هود: ١١] ، أى: صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عَجِبًا لِلْمُؤْمِنِ . لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرًا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ فَآتَى ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مَن شَأْنٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿

يقول تعالى أمرًا بإعطاء ذى ﴿ القربى حقّه ﴾ أى : من البر والصلة ﴿ والمسكين ﴾ وهو : الذى لا شىء له ينفق عليه ، أو له شىء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وأبى السبيل ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أى: النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أى : فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسرهُ ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبي - وهذا الصنيع مباح ، وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْتَنُنَّ نَسْتَكْفُرُ ﴾ [المدثر: ٦] أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس: الربا ربا، أى : فربا لا يصح ، يعنى : ربا البيع وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ رَبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما جاء فى الصحيح : « وما تصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيريها لصاحبها كما يرمى أحدكم فلقوه أو فصيله ، حتى تصير الثمرة أعظم من أحد » (٢) .

وقوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أى: هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عربانًا لا علم له ولا سميع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والاملاك والمكاسب . ﴿ ثم يميتكم ﴾ أى: بعد هذه الحياة ، ﴿ ثم يحييكم ﴾ أى : يوم القيامة .
وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أى: الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مَن شَأْنٍ ﴾

أى : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله - سبحانه وتعالى - هو المستقل بالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ، ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾
أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعظيم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو ، أو ولد أو والد ، بل هو الواحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي
عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدى ، وغيرهم : المراد بالبر ها هنا : الفياض ، وبالبحر : الأمصار والقرى . وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر : الأمصار ، والقرى : ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر : هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف . وقال زيد بن ربيع : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾ يعنى : انقطاع المطر عن البر يمتد القحط ، وعن البحر تسمى دوابه . وعن مجاهد : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد البحر : أخذ السفينة غصباً . وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر : ما فيه من المدن والقرى ، وبالبحر : جزائره . والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة ، وكتب له ببحره يعنى : بيلده . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أى : بان النقص فى الثمار والزروع بسبب المعاصى . وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أسفد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا إذا نزل عيسى ، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه وأجوج وماجوج ، قيل للأرض : أخرجى بركاتك . فيأكل من الرمانه الفنام من الناس ، ويستظلون بقحفها ، ويكفى لب اللقحة الجماعة من الناس . وما ذاك إلا بركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت فى الصحيح : « إن الفاجر إذا مات تستريح العباد والبلاد ، والشجر والدواب » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : يتلهم بنقص الاموال والانس والثمار ، اختياراً منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاعراف : ١٦٨] . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، أى : من قبلكم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ ﴾ مَنْ
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ

فَصَلِّهِمْ إِنَّمَا لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يوم القيامة ، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿ يَوْمَذِ يَبْذُرُونَ ﴾ أى : يتفرقون ، ففرق في الجنة وفرق في السعير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ لَعَنَ اللَّهُ كُفْرَهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ بِنَهْدِهِمْ لِيُجْزَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ . وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمة ، بمجيء الغيث عقبها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحى به العباد والبلاد ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : فى التجارات والمعاش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ ، هذه تسلية لله لعبده ورسوله محمد ﷺ ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أهمهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن الله انتقم . من كذبهم وخالفهم ، وأنهى المؤمنين بهم ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكريماً وتفضلاً ، كقولته تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام : ٥٤] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ السَّحَابَ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَدَرَى الْوَدْقِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ظُلُمَاتٍ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّئُ لِلْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُعْجَى الْمُؤْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذى ينزل منه الماء فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ السَّحَابَ ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَسْطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى : يمدّه فيكثره وينميه ، ويجعل من القليل كثيراً ، ينشئ سحابه فترى فى رأى العين مثل الترس ، ثم يسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتى السحاب من نحو البحر نقلاً مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا نَقَلْنَا سَقَاءَهُ لِبَلَدٍ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ

الشمات كذلك تُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ [الامراء : ٥٧] ، وكذلك قال هاهنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا مَبْسُوطًا فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَهْبِطُهُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ . قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الوراق ، وقناة : يعنى قطعاً . وقال غيره : متراكماً ؛ قاله الضحاك . وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلًا قريبًا من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ قَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ ﴾ أى : قترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بتزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِينَ ﴾ معنى الكلام : ان هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ، جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعاً عظيماً . ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُعْجِبُ الْمَوْتَى ﴾ أى : إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الاموات ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا يَابِسَةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِى رَزَعُوهُ ، وَنَبَتْ وَشَبَّ وَاسْتَوَى عَلَى سَوَاقِهِ ، ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٦٧] .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّةَ الدُّعَاءَةَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الاموات فى أجدانها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان على الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الاموات اصوات الاحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لاحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والاول مثل الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْخَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الانعام : ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية - ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى للذين ألقوا فى قلب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعهم لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جفوا ؟ فقال : «والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون» . وتاولته عائشة على أنه قال : «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق» . وقال قناة : أحياهم الله حتى سمعوا مقاله تويخاً ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له ، عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أحد يمر بغير أخيه المسلم ، كان يعرفه فى الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » (١) .

(١) الاستذكار (٢ / ١٦٥) ، ونصه : « ما من أحد يمر بغير أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا ، فلم عليه ، إلا عرفه ورد عليه السلام » .

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه (١) ، وقد شرع النبي ﷺ لامته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » (٢) ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدم والجماذ ، والسلف مجمعون على هذا .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، والله أعلم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

ينه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال ، فاصله من تراب ، ثم من نقطة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ثم تكسى لحما ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ، ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيرا ، ثم حدثا ، ثم مراهما ، ثم شابا . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص فيكتهل . ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : يفعل ما يشاء ويتصرف في عيده بما يريد ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الاوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة ، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنظَرُوا حتى يُعَذَّرَ إليهم . قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴿ أي : فبردة عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في كتاب الاعمال ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي : من يوم خلقتهم إلى أن يعثم ، ﴿ وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي : اعتذارهم عما فعلوا ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : ولا هم يرجعون في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤] .

(١) مسلم (٢٨٧٠ / ٧٠ ، ٧١) وأبو داود (٣٢٣١) وأحمد (٢ / ٣٤٧ ، ٤٤٥) .

(٢) مسلم (٢٤٩ / ٣٩) وأبو داود (٣٢٣٧) وأحمد (٢ / ٣٧٥ ، ٣٧٥) .

﴿ وَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿ وَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم ، وصرينا لهم فيه الامثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ أى: لو راوا أى آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها ، ويمتصدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَتَوَّجَّاهُتُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَوَدُّوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله متجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولن اتبعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ﴾ أى : بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر : روى الإمام أحمد عن شيبب أبى روح ، يحدث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم ، فلما انصرف ، قال : « إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » (١) . وهذا إسناد حسن ومتن حسن ، فيه سر عجيب . ونبا غريب . وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من اتهم به، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام .